

البحث الثامن

علم الأديان في الفكر الإسلامي

يرى العلماء المسلمون أن علم الأديان علم إسلامي ، أي أنه لم يسبق للعلماء قبل الإسلام أن كتبوا فيه كتابة مستقلة ، بل جاء حديثهم عن أديان غيرهم في ثناء البحوث النفسية ، أو الفلسفية ، أو الجدلية ؛ فيذهب محمد عبد الله دراز في كتابه : " الدين " إلى أن كتابات المسلمين في علم الأديان تتميز بطابعين جديدين :

أما أحدهما ، فهو أن الحديث عن الأديان بعد أن كان في العصور السابقة ، إما مغموراً في لجة الحديث عن شئون الحياة ، وإما مدفوعاً في تيار البحوث النفسية أو الفلسفية أو الجدلية ، أو على الأقل محدوداً بمحدود العقائد الموضوعية وما يشارفها ، أصبح في كتب العرب دراسة وصفية واقعية ، منعزلة عن سائر العلوم والفنون ، شاملة لكافة الأديان المعروفة في عهدهم ، فكان لهم بذلك فضل السبق في تدوينه علماً مستقلاً ، قبل أن تعرفه أوروبا الحديثة بعشرة قرون .

وأما الآخر - وهو ليس أقل نفاسة من سابقه - فهو أنهم في وصفهم للأديان لم يعتمدوا على الأخيلة والظنون ، ولا على الأخبار المحتملة للصدق والكذب ، ولا على العوائد والخزعبلات الشائعة في الطبقات الجاهلة ، والتي قد تنحرف قليلاً أو كثيراً عن حقيقة أديانها ، ولكنهم كانوا يستمدون أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوقة بما ، ويستقونها من منابعها الأولى. وهكذا بعد أن اختطوه علماً مستقلاً ، اتخذوا له منهجاً علمياً سليماً^{١٨٧}.

قد يكون هذا صحيحاً من زاوية عدم إفراد كتب في علم الأديان - إلا إذا اعتبرنا موضوع كتابي : الإلياذة والأوديسا تاريخاً دينياً - ، أما إذا نظرنا من زاوية نقد العقائد ، أو محاولة التوفيق بينها وبين الفلسفة ، فذلك راجع إلى العصور القديمة - كما سبق بيانه في البحث السابع - ، وهو الأمر الذي يقوم عليه علم مقارنة الأديان في العصر الحديث ؛ إذ أن الخطوة الأولى على طريق البحث في هذا العلم ، هو نقد العقيدة الموروثة ، وهذا لم يتوفر للعلماء المسلمين - بل لم يكن في مقدورهم من ناحية إيمانهم بالإسلام - إلا بالنسبة لعقائد الآخرين فقد كانت المناقشات أثناء العصور الوسطى تدور حول نفي أو إثبات صحة العقائد

المسيحية . وكان للمسلمين باع طويل في نقدهم لتلك العقائد^{١٨٨} ، واستخدموا في نقدهم لها مناهج متعددة، فاتجه البعض إلى استخدام منهج التسليم جدارياً بصحة الأناجيل والتدليل على أنها لا تتضمن ما يدل على عقيدة إلهية المسيح ، ولا على بنوته الحقيقية لله ، معتقدين أنه إذا انهار هذا الأصل من أصول ديانتهم انهارت بقية عقائدهم . وهذا ما فعله - على سبيل المثال - الإمام الغزالي في كتابه : " الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل " . واتجه فريق ثانٍ إلى الطعن في قيمة الأناجيل من حيث صحتها ككتاب مقدس ، ميين تحريفها ، لما وجدوه من تناقض وتعارض بين نصوصها ، ولضعف سلسلة رواياتها : كما فعل إمام الحرمين الجويني في كتابه : " شفاء العليل فيمن حرف الإنجيل " ، لأن المسيحيين يدعون أنهم استخلصوا عقائدهم منها ، فإذا ثبت تناقضها انهارت عقائدهم من أساسها . واتجه فريق ثالث إلى نقد عقائد المسيحية نقداً عقلياً يؤدي إلى تماتها وظهور لامعقوليتها ، كما فعل أبو عيسى الوراق في كتابه : " الرد على فرق النصارى " . واتجه فريق رابع إلى الجمع بين هذه المناهج الثلاثة ، كما فعل القرافي في كتابه : " الأجوبة الفاخرة " .

تلك هي مناهج المسلمين الأوائل في نقد المسيحية ، وهي ، رغم كونها مناهج جديفة تقوم على اعتقادات مسبقة ، استقاها المسلمون من القرآن الكريم ، قد انتقلت إلى الغرب واستفاد منها الأوروبيون ، بل تبناها ، فكانت الأساس الذي قام عليه علم نقد الكتب المقدسة في أوروبا ، حتى قال أحد علماء الأديان الفرنسيين ، في معرض حديثه عن كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم : " إن نقده للعهد القديم كتنقده للعهد الجديد ، يفوق من عدة وجوه ، وفي كثير من التفاصيل ، نقد القرن التاسع عشر هما عشر لهما " ^{١٨٩} لكن المجادلين المسلمين لم يطوروا مجهودهم النقدي للمسيحية ، بل وقفوا عند

^{١٨٨} انظر :

- ١ . الرد على النصارى [أبو عثمان الجاحظ ت ٢٥٥ هـ]
- ٢ . شفاء العليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل [إمام الحرمين الجويني ٤٧٨ هـ]
- ٣ . النصيحة الإيمانية في نصيحة الملة النصرانية [ابن يحيى المنطبي ت ٥٨٩ هـ]
- ٤ . مقام همامات الصلابة ومراتب روضات الإيمان [أبو غيثة الخزرجي ت ٥٨٢ هـ]
- ٥ . الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل [حجة الإسلام الغزالي ت ٥٠٥ هـ]
- ٦ . الرد على النصارى [الجعفرى ت بعد ٦٣٢ هـ]
- ٧ . الفصل في الملل والنحل [ابن حزم ت ٤٥٦ هـ]
- ٨ . الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة [القرافي ت ٦٨٤ هـ]

^{١٨٩} محمد حسانين : مقدمة تطور العقائد لـ " شارل جنيبورت " ص ١١ نقلا عن الفريد جيوم : النبوة والتنبؤ عند الساميين - باريس

. ١٩٥٠ ص ٤٨٦ .

حد التدليل على زيف العقائد المسيحية ، وتبعهم في ذلك المؤلفون المسلمون المحدثون الذين لا يعدو مجهودهم في هذا المضمار أن يكون نشر ، أو إعادة نشر المخطوطات الجدلية القديمة ، أو إعادة عرض آراء المجادلين المسلمين القدامى في أسلوب جديد.¹⁹⁰

يتبين من هذا أن مناهج المسلمين في علم الأديان تتلخص في :

١. منهج تاريخي وصفي ، مثل : الملل والنحل للشهرستاني ، وهو كتاب تاريخ للأديان

والفرق ، اتبع المنهج الوصفي التاريخي للملل والنحل.¹⁹¹

٢. منهج جدلي ، مثل : الفصل في الملل والنحل لابن حزم.¹⁹²

أما مقارنة الأديان بالمعنى الذي شرحناه سابقاً ، فلم يظهر إلا في العصر الحديث ، بقول الأب قناتى : " إن تاريخ الأديان المقارن لم يتكون علمياً إلا في أوائل القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر ، إذ لم يكن من قبلُ الروح العلمي والطرق العلمية متوفرة لدى الباحثين ، ولم تتوفر أيضاً الوسائل للتحصل على المعلومات الكافية والدقيقة عن الديانات العديدة المنتشرة في العالم . غير أن مجرد المقارنة والوصف الخارجي للظواهر الدينية يرجع عهدها إلى التاريخ القديم عند اليونان والرومان ".¹⁹³

ويرى دراز أن المنهج الجديد المتكرر في العصر الحديث ، فهو " ضرب من الدراسات النظرية ، والاستنباطات الكلية ، التي تهدف إلى إشباع فئمة العقل في التطلع إلى أصول الأشياء ومبادئها العامة ، حين تشعب عليه جزئياتها وتفصيلاتها .

بيان ذلك - في موضع علم الأديان - أن الذي يستقرئ الملل على كثرتها ، إذا درسها دراسة مقارنة ، وأخذ يعزل ما فيها من المقارقات ووجوه الاختلاف ، سيجد فيها ألبتة وجوهاً من المشابهة تتلاقى

¹⁹⁰ المصدر السابق ص ١٠ - ١١

¹⁹¹ سلك فيه المؤلف منهجاً جديراً بالعبارة والدرس والاتباع ، حتى من الناحية الشكلية ، إذ قدم له بمقدمات خمس ، وضع فيها خلاصة علمه ، وأردعها صفرة تجاربه وثقافته . وقد قسم الكتاب بعد هذه المقدمات إلى قسمين : قسم خاص بأرباب الديانات والملل ، ويقع في ثلاثة أجزاء : جزء خاص بالمسلمين ، وثانٍ بأهل الكتاب ، وثالث بمن له شبهة كتاب . وقسم خاص بأهل الأهواء والنحل ، ويقع في أربعة أجزاء : جزء خاص بالصابئة ، وثانٍ بالفلاسفة ، وثالث بآراء العرب في الجاهلية ، ورابع بآراء الهند .

¹⁹² يعتبر منهج ابن حزم في هذا الكتاب معبراً تعبيراً صحيحاً عن المنهج الجدلي عند المسلمين في مجال علم الأديان ، وللتعرف على مجهود المسلمين راجع رسالة دكتورة نال بها الباحث : ياسر أبو شبانة على الرشيدى درجة الدكتوراة من كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة - جامعة الأزهر ، وهى بعنوان : " جهود علماء المسلمين في نقد (الكتاب المقدس) من القرن الأول حتى القرن السابع الهجرى / عرض ونقد "

¹⁹³ بدران ص ١٩

عندها كل الديانات ، وسيجد في نفسه إذ ذاك باعثة تصعب مقاومتها ، تدفعه إلى استخلاص هذه المبادئ العامة ، وجمعها في وحدة كلية يحدد بها طبيعة الدين من حيث هو . كما أنه حين يرى ظاهرة التدين حظاً مشاعاً في الجماعات ، مشتركاً بين الأمم الحاضرة والغابرة ، البادية والمتحضرة ، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه السؤال عن منشأ هذه الظاهرة العالمية ومصدرها : هل لها منبع في طبيعة الفرد أو المجتمع ؟ أم كانت وليدة المصادفة ، أو ثمرة الصنعة والابتكار ؟ أم ماذا ؟ وهل كان في اختلاف صورها ومظاهرها في غضون التاريخ ما ينم على وجود ضرب من التسلسل والتولد بين بعضها وبعض ، أو ما يدل على الأقل على شيء من التدرج التصاعدي أو التنازلي بينها ؟ أم أنها لم تسر على سنن واحد ، بل كانت تصعد تارة ، وتنحدر تارة ، وتقف طوراً وترجع عوداً على بدء كرة أخرى ... ؟¹⁹⁴

¹⁹⁴ دراز ص ١٨